الموضوعية في كتابة التاريخ

١

الدكتور ياسين خليل
كلية الآداب / جامعة بغداد

١ ـ تحدثنا في الحلقات السابقة تحت عنوان « كيف نفهم التاريخ ؟ » عن الحوادث والوقائع والحقائق التاريخية ، وعن جانب من الرسالة الحضارية التي حملتها الأمة العربية عبر التاريخ ، ودور هذه الرسالة في فهمنا للتاريخ . وتتابع في هذه الحلقة الموضوع نفسه ، فنناقش مسألة اختلف فيها المؤرخون وفلاسفة التاريخ وهي : هل يمكن تحقيق الموضوعية التي نجدها في العلوم الطبيعية ، في كتابة التاريخ ؟

ولاجل ان تكون الاجابة واضحة المعالم لابد ان نحدد مفهوم الموضوعية بصورة عامة أولا ، ثم نتعرف من خلال المفهوم ان كان بالامكان كتابة التاريخ موضوعياً ثانيا .

لقد جذب مفهوم الموضوعية انظار العلماء في شتى فروع المعرفة نظرا لما تحقق بفضله من تقدم العلوم الطبيعية وما نتج عنها من اكتشاف العلماء لعدد غير قليل من القوانين الطبيعية التي استطاع الانسان بفضلها فهم الطبيعة وظواهرها بشكل أفضل . فبعد التأملات الميتافيزيقية والمحاولات الذاتية التي طرحها الانسان لفهم الطبيعة وظواهرها ، والتي لم تستطع ان

(*) تمثل هذه الصفحات آخر ما كتبه الاستاذ الفاضل المرحوم الدكتور ياسين خليل الذي توفى في ايار عام ١٩٨٦ .

العربي الخليجي ، مكتب المتابعة ، مطبعة وزارة الاعلام لدولة البحرين ، ١٩٨٣ .

— وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، انجازات على طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية في ظل الحزب والثورة ، بغداد ، ١٩٨٥ .

— وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ، المؤسسة العامة للرعاية الاجتماعية (الملغاة) ، دائرة رعاية المعوقين وتجربة العراق في مجال رعاية المعوقين ، مطبعة العمال المركزية ، بغداد ، ١٩٨٥ .

— وزارة العدل .

— قانون الرعاية الاجتماعية رقم (١٢٦) لسنة ١٩٨٠ ، مطبعة وزارة العدل ، بغداد ، ١٩٨٠ ، اصلاح النظام القانوني (٩) .

— السجلات والتقارير الرسمية للمؤسسة العامة للرعاية الاجتماعية (الملغاة) قسم دور الحضانة ، ١٩٨٣ .

— تقرير صادر عن المؤسسة العامة للرعاية الاجتماعية (الملغاة) قسم التخطيط والمتابعة ، ١٩٨٤ ، بغداد .

تحقق أي تقدم حقيقي في معرفة الانسان ، انتقل الانسان الى مرحلة جديدة استبعد فيها من طريقه الفرضيات الميتافيزيقية والآراء الذاتية ، ليجد نفسه في وسط الطبيعة من جديد يتعلم منها ولا يفرض عليها تأملاته ورغباته ، فكانت الموضوعية اساس موقفه الجديد .

٢ ـ ترتبط الموضوعية في العلم بشرط عدم تدخل الباحث ذاتيا في ميدان البحث ، اللهم الا بالقدر الذي تمليه عليه الطريقة العلمية ، بحيث يبتعد كليا عن تصوير الوقائع والحقائق بالشكل الذي يرغبه أو يتصوره أو يميل اليه سواء بتحيز أو بتعصب . فليست الطبيعة امتدادا لرغبات المشاهد واحاسيسه وأفكاره ، وهي ليست من خلق أو ابداع عقله ، بل هي وجود مستقل عن الذات الانسانية وان دور هذه الذات يقتصر على محاولة فهم الطبيعة وظواهرها ، وتكون معرفة شاملة يشترك فيها ويستفيد منها البشر .

ان افضل سبيل لفهم معنى الموضوعية بالاضافة الى ما تقدم هو في كشف التعارض بينها وبين الذاتية واخفاقاتها في تزويد الانسان بمعرفة علمية رصينة . اذا دققنا النظر في الجانب اللفظي لمفهوم « الموضوعية » لادركنا على الفور انها ذات صلة بالموضوع ، والموضوع شيء قابل للادراك ، وانه خارج ومستقل من العملية الادراكية ، وان دراسة الشيء أو الموضوع معناه اخضاع جميع صفاته وخواصه وظروفه للبحث بتجرد ، واذا دققنا النظر في الجانب اللفظي لمفهوم « الذاتية » لادركنا على الفور انها ذات صلة بالذات ، والذات هي الجانب المقابل للموضوع ، وانها القوة الادراكية بالحس والعقل ، وهي ليست جزءاً من الموضوع ، بل طرف ضروري في العملية الادراكية وبناء المعرفة . وللذات كذلك جميع الخواص الشعورية والصفات النفسية والحالات الانفعالية وغير ذلك .

٣ ـ ان التأكيد على الموضوعية في العلم وادانة الذاتية ناتج عن

الاخفاقات التي رافقت الذاتية في معرفة العالم الخارجي • فالاعتقاد المطلق بقدرة العقل الانساني من الوصول الى المعرفة الحقة بشأن الكون من خلال التأمل والالتزام بمقولات ومبادىء مغروزة في العقل ، يمثل صورة من صور الذاتية • كما ان الاعتقاد بان العالم الخارجي وهمي لا وجود له حقيقة ، وان الادراك الحسي لا يقودنا الى المعرفة العلمية الرصينة ، وان المنطق بقوانينه هو الاساس في المعرفة الحقة ومقياسها ، يمثل صورة أخرى من صور الذاتية • وان الاعتقاد بان الانسان هو مقياس جميع الاشياء ، وان المعرفة بالعالم الخارجي نسبية لا تصل الى حدود الاجماع والشمولية ، وان الأشياء والحوادث والوقائع تختلف باختلاف المراقبين لها وتخضع لوجهات نظرهم ومواقفهم ، صورة أخرى من صور الذاتية •

لاشك ان هذه الصور للذاتية وغيرها غير قادرة على تطوير المعرفة العلمية ، بل انها مسؤولة الى حد كبير عن كثير من الاخفاقات والنمو البطىء للمعرفة العلمية • لذلك نجد ان علماء العصر الحديث بتعلقهم بالموضوعية واستبعاد الصور المختلفة للذاتية ، ينظرون الى البحث العلمي ومستلزماته بثقة عالية نتيجة لما أصاب العلم بفضل الموضوعية من تطور وتقدم •

٤ – وترتبط الموضوعية كذلك باسلوب البحث ونتائجه ، وغالبا ما يكون الاستقراء هو المنهج أو الاسلوب الذي يتوخاه الباحث في الانتقال من حالات أو أشياء محدودة قيد الدرس بعد الملاحظة والتتبع واجراء التجارب ، لاكتشاف العلاقة الموضوعية الثابتة أو الجوهرية التي تجمع الحالات في صيغة واحدة ، الى الفرضية وهي قول كلي يعبر عن افتراض العلاقة الثابتة ، لتعليل الحالات قيد البحث • فاذا ما ايدت الملاحظات والتجارب الجديدة ما تعبر عنه الفرضية ، فانها سرعان ما تتحول الى قانون طبيعي ، ولكن يبقى القانون دائما عرضة لاختبارات جديدة في المستقبل ،

وكلما ايدته الملاحظات والتجارب ازدادت درجة متانته والثقة به في تعليل حوادث وظواهر اخرى • وهكذا الموضوعية في العلوم الطبيعية شرطا من شروط البحث العلمي من جهة ، ومنهجا مرتبطا بالاستقراء والقانون من جهة ثانية ، وطريقة في التثبت من صـــدق القوانين أو كذبها من خلال الملاحظات والتجارب من جهة ثالثة • ومن الملاحظ ان المنهج العلمي المتبع في العلوم الطبيعية يبـدأ بالموضوعية أولا ويعمل على تدعيمها مع تقليص فرص الذاتية ثانيا ، وينتهي في دورته الاولى بالكشف عن القانون الطبيعي ثالثا • وتبقى الموضوعية فاعلة في الدورة الثانية للمنهج ، حيث يلتزم الباحث بالملاحظة والتجربة للحالة أو الحالات من أجل اثبات صدق القانون أو كذبه ، فلا يحق له التعليل كيفما اتفق ، ولا يحق له اقحام رأيه أو رغبته في جعل القانون صادقا أو كاذبا ، ويحق له فقط ان يتوثق من الملاحظـة والتجـــربة واشتقاقات القانون لادراك العلاقـــة بين القانون والملاحظات والتجارب الجديدة ، وهذا هو جوهر الموضوعية في البحث العلمي •

٥ ـ ويحق لنا ان نتساءل الآن : هل يوجد فصل تام بين الموضوعية والذاتية في البحث العلمي ؟ وهل للذاتية دور مهم في البحث الموضوعي ؟ وما هو مدى الذاتية المسموح به في العلوم الطبيعية ؟

ومن أجل الاجابة على هذه الاسئلة بوضوح ودقة لابد لنا من تحليل المعرفة العلمية الخاصة بالعلوم الطبيعية وعلى رأسها علم الفيزياء • فالعالم المادي الخارجي حقيقـــة موضوعية لا يمكن انكارها ، وان الحـــوادث والاشياء والظواهر في الطبيعة مهما كانت صغيرة أو كبيرة موجودة خارج الذات الانسانية وبمعزل عنها ، ولكنها في الوقت نفســه موضوعا للادراك والبحث العلمي • والمعرفة العلمية حصيلة التفاعل بين الموضوع والذات ، اذ لا يمكن بناء هـــذه المعرفة من غير وجـــود مستقل للحوادث والاشياء والظواهر في الطبيعة ، ولا يمكن تصور معرفة علمية من غير الذات المدركة

المتعلقة بالوجود الانساني • فالمفاهيم العلميـــة تصورات بشرية لخواص وصفات معينة في الوجود الطبيعي • والفرضيات والقوانين والنظريات ليست الا طروحات علمية لفهم العالم الخارجي ، فهي بذلك ليست مطلقة أو يقينية يقينا مطلقا ، بل هي عرضة للتغيير والتعديل والتبديل ، كما انها احتمالية وليست صادقة صدقا مطلقا • ويعود السبب في هذا التلازم الى وجـــود العنصر الذاتي في المعرفة العلمية والذي لا يمكن استبعاده مطلقا ، وعدم امكانية بناء المعرفة بموضوعية مطلقة • ولكن هذه الذاتية مقبولة وضرورية وجزء لا يتجزء من المعرفة العلمية ، اذ ليست المفهيم والمبادىء والقوانين والنظريات العلمية كيانات موضوعية موجودة في العالم الخارجي ، وهي ليست انعكاسا للواقع المادي كما يحلو لبعض الناس قول ذلك بل مجرد تراكيب من صنع البشر تعبر عن العلاقـة بين الموضوع والذات • ويبقى معيار صحة هذه العلاقة مرتبطا بالنتائج التي نحصل عليها من المعرفة العلمية سواء من خلال فهم الطبيعة وظواهـرها في ضوئها أو من خلال تأييـــد الملاحظات والتجارب في المستقبل للقضايا المستنتجة منها •

٦ ـ هذا هو موقف العلم الحديث من الموضوعية والذاتية ، فهل يمكن تحقيق الموضوعية في العلوم الاجتماعية ، وخاصة في كتابة التاريخ ؟

وللاجابة على هذا السؤال لابد لنا في بادىء الامر من ابراز أهـم الاختلافات بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، لان في ذلك كما اعتقد مفتاح الاجابة •

لقد أصبح واضـحا بان الحادثة أو الحالة أو الظاهـرة في التاريخ والعلوم الاجتماعية الاخرى ليست بمعزل عن الانسان بنفس الدرجة التي تكون عليها في الفيزياء والعلوم الطبيعية الاخرى ، بل ان الانسان جـزء لا يتجزء من تكوينها ، فالتاريخ الذي نتحدث عنـــه هـو تاريخ الانسان والمجتمعات التي تتألف بدورها من مجموعات بشـــرية ترتبط بعـلاقات

اجتماعية واقتصادية وفكرية وغير ذلك •

ان نجاح العلوم الطبيعية في العصر الحديث في التوصل الى مجموعة كبيرة من القوانين والنظريات بفضل التأكيد على الموضوعية والتجريبية والاستقراء قد دفع بالفلاسفة وعلماء العلوم الاجتماعية الى الاقتناع بضرورة المنهج الاستقرائي والموضوعية في استقصاء الحوادث والوقائع باتجاه اكتشاف قوانين اجتماعية وقد ذهب بعضهم الى حدود التطرف بان حاول استعارة مفاهيم الفيزياء ومبادىء النظرية الميكانيكية في سبيل فهم وتفسير جميع الظواهر الاجتماعية ، ومن بينها التاريخية بالطبع • ولا تزال بعض الدراسات الحديثة في التاريخ وفلسفته لم تتخلص حتى الآن مما علق بها من تأثير العلوم الطبيعية ، وبقيت تردد عبارات ومقولات مستمدة من علم الفيزياء ومنهجه التجريبي •

يجب علينا ان ندرك بوضوح لا يقبل الشك أو التأويل بان الحادثة أو الحالة أو الظاهرة الطبيعية مستقلة عن الانسان بمعنى انها قائمة بغض النظر سواء كان الانسان موجودا او غير موجود ، في حين ان الحادثة أو الحالة أو الواقعة في التاريخ ليست مستقلة عن الانسان ، وانه لا يمكن تصور التاريخ السياسي والاجتماعي والحضاري للانسان في حالة عدم وجوده او غيابه عن المسرح •

٧ ـ كما ان تطبيق الاستقراء كمنهج فيزياوي يتطلب أو يفترض انتظام الظواهر وتكرارها ، بحيث نستطيع من خلال ذلك اكتشاف العلاقة الثابتة التي نعبر عنها بقانون طبيعي ، في حين ان الانتظام والتكرار للظواهر الاجتماعية ومنها التاريخية غير متوفر ، وان السببية بمعناها العام والدقيق غير قائمة • واذا صادف ان وجدت بعض الانتظامات وامكن التعبير عنها سببياً ، فان ذلك ولاشك في الحدود الدنيا ، ولا يمكن ان ترقى الى مستوى نستطيع التعبير عنها بقانون عام • ولقد ساعد انتظام الظواهر الطبيعية على

تزويد العالم بالثقة بان القوانين الطبيعية التي توصل اليها من طريق التجارب والملاحظات وتطبيق المنهج الاستقرائي ، سوف لن تتغير في المستقبل من ذاتها ، وان توفر الظروف الاولية للظاهرة يؤدي الى حدوث ما يترتب عليها ، وهذا معناه ان السببية في العلم الطبيعي تمنح العالم الفرصة بالتنبؤ مستقبلا ، ولا يخطر ببال أحد بان فعل السببية يمكن ان يتوقف بارادة انسان ما ، وان الاشياء يمكن ان تتغير فجأة فينقلب الانتظام الى عشوائية .

اما الامر في التاريخ والعلوم الاجتماعية الاخرى فمختلف ، فغياب الانتظام في الظواهر ، وحضور الارادة الانسانية في الفعل بالحدث والواقعة ، وعدم وجود السببية بالصورة الفيزياوية الدقيقة ، يجعل مسألة التنبؤ مستقبلا معقدة ، بل ولا يمكن تحقيقها اللهم الا في الحدود الدنيا كذلك .

٨ ـ ان معطيات العلوم الطبيعية هي الحوادث والظواهر والاشياء في العالم الخارجي ، وان استخدام التجارب المختبرية ليس الا وسيلة لنقل المعطيات من الطبيعة الى المختبر لدراستها بمعزل عن تأثير معطيات اخرى تتشابك معها في الفعل وهي حرة في الطبيعة . ونظرا لتوفر الموضوعية على أساس غياب الارادة الانسانية في الظاهرة الطبيعية ، فان التجربة المختبرية توفر للعلماء والباحثين نفس النتائج ، فلا يمكن ان تكون نتائجها مختلفة بالنسبة للاشخاص باختلاف انتماءاتهم القومية والجغرافية والسياسية والايديولوجية ، بل تبقى واحدة للجميع وان تكرار العمل بها في الظروف نفسها لا يغير من نتائجها كذلك ، فهي تحظى بناء على ذلك باتفاق شامل . اما الامر بالنسبة للتاريخ والعلوم الاجتماعية الاخرى فعلى النقيض ، فليس هناك تجارب بالمعنى الذي نجده في الفيزياء ، وان وجدت بعض التجارب في علم النفس على سبيل المثال ، فانها ليست واحدة لجميع البشر في نتائجها ، وذلك لان الانسان كائن مختلف ومتغير ، فاستجابات انسان ينتمي الى حضارة متقدمة غير استجبات انسان قبائل افريقيا ، واستجابات انسان

ينتمي الى دولة ماركسية الثقافة والتوجيه غير استجابات انسان ينتمي الى دولة ليبرالية ، وهكذا ، فالانسان واحد في التكوين البيولوجي ، ولكنه مختلف في التكوين الحضاري والسياسي .

وبالاضافة الى ما تقدم فأن الحوادث والوقائع التاريخية لا يمكن ان تتكرر ، وان ارتباطها بعنصري الانسان والزمن يجعلها فريدة ، اذ لا يمكن اعادة الزمن الى الوراء ولا يمكن اعادة الانسان الماضي الى الوجود . كما ان النتائج التي يمكن ان يتوصل اليها الانسان من خلال دراسته للحوادث والوقائع لا تحظى باتفاق شامل ، اذ تختلف النتائج باختلاف الانتماءآت القومية والمذهبية والسياسية والفكرية ، وتختلف التقويمات تبعا لذلك . واذا وجدت درجة معينة من الاتفاق الشامل في النتائج ، فذلك بين المؤرخين الذين ينتمون الى مدرسة فكرية أو ايديولوجية واحدة ، ولا يمكن اعتبار ذلك شاملا لكل المؤرخين .

٩ ـ يبدو الامر الآن واضحا بان الموضوعية المتوفرة في العلوم الطبيعية لا يمكن تحقيقها في العلوم الاجتماعية ، وانه مهما حاول المؤرخ ان يكون موضوعيا في كتابته للتاريخ ، فانه سيجد نفسه في آخر الامر مخدوعا بفهم خاطىء املته عليه نزعته في الارتفاع في المنهج التاريخي الى مستوى المنهج المستخدم في علم الفيزياء . والمشكلة في حقيقة الامر كامنة في طبيعة مادة البحث ذاتها ، فمادة الفيزياء غير مادة التاريخ ، وغاية الفيزياء غير غاية التاريخ ، وليس ضروريا ان يكون منهج البحث واحدا لكل العلوم سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو انسانية . المهم ان يتوقف المؤرخ عن الركض وراء العلوم الطبيعية ، وان يتوقف عن اصدار احكام ذاتية لا تمثل الا موقفه المذهبي والفكري ، وعليه ان يبحث عن مجموعة من القواعد العامة في البحث التي تؤدي الى اتفاق شامل في حدود معقولة فتكون مقبولة من قبل الامة التي ينتمي اليها ويكتب تاريخها ويجسد أهدافها وآمالها .

٢

١ ـ ناقشنا في الحلقة السابقة الموضوعية في العلوم الطبيعية واختلافها عن الموضوعية في التاريخ والعلوم الاجتماعية ، وغايتنا في هذه الحلقة متابعة البحث لاثبات ان الموضوعية في كتابة التاريخ مجرد خرافة لا اساس لها ، ونبدا بالمادة الاولية في كتابة التاريخ ، والمبادىء التي تتحكم في عرض المادة التاريخية وتصنيفها وربطها في سلسلة زمنية متتابعة .

الحوادث في المجتمع الانساني التي تقع في الزمان والمكان هي أساس المعرفة التاريخية ، فالانسان عنصر أساسي في كل حادثة تاريخية ، فهو جزء لا يتجزء من الحادثة ذاتها . وليس الانسان في الحادثة التاريخية مجرد بعد من ابعادها مثل بعدي الزمن والمكان ، بل ارادة فعالة في حالة التاثير ومستقبل ايجابي في حالة الاثر . ولهذا يجب ان ننظر الى الحادثة التاريخية بالاضافة الى واقعها الزمني الاني وهو الحاضر الذي وقعت فيه ، من خلال ارتباطها بحادثة أو حوادث أخرى في الماضي من جهة ، وارتباطها بحادثة أو حوادث أخرى في المستقبل من جهة أخرى . وليست الارادة الانسانية في الحادثة واحدة وثابتة لا تتغير بحيث يمكن عرضها على أساس انها مجرد بعد تكويني لها ، بل انها متغيرة ومتبدلة وليست واحدة ، لذلك فان دراسة الحوادث التاريخية يستلزم بالضرورة دراسة البعد الانساني وتاثيره في التاريخ .

٢ ـ واذا كانت الحوادث التاريخية هي المادة الاولية في التاريخ ، فان معرفتها يجب ان تكون من قبل انسان ما ، وهذه المعرفة اما ان تكون مباشرة أو غير مباشرة . ففي الحالة الاولى يدرك الانسان بحواسه وعقله ما وقع امامه ، وسواء يقوم هو بتسجيل معرفته أو ينقلها بالرواية الى الآخرين ، فان هذه المعرفة لا يمكن ان تكون موضوعية ودقيقة للاسباب الآتية :ـ

اولا – اذا كان المسجل أو الراوي جزء من الحادثة ، فانه ولا شك سيعكس فهمه لها من خلال وضعية فكرية معينة ، حيث يكون للتحيز والتعصب ووجهة النظر وغير ذلك الاثر الكبير في عرض الحادثة أو روايتها ، وبذلك تفقد الموضوعية ركنا اساسيا من أركانها ، وهو ضرورة ان يكون المراقب بمعزل عن الحادثة • وفي الحالة الثانية عندما لا يكون المراقب او المسجل او الراوي جزء من الحادثة ، ولكنه كان على معرفة مباشرة لها ، فان امكانية تسجيل الحادثة أو روايتها بموضوعية دقيقة تعتمد على معرفته وادراكاته ، وهو امر لا يتوفر الا عند قلة من الناس ، وهم الذين تدربوا على طريقة الرصد وطريقة العرض والتسجيل التاريخي ، وبخلافه تصبح الحادثة خاضعة لوضعية المسجل أو الراوي النفسية والاجتماعية والفكرية ، فلا تتحقق الموضوعية •

ثانيا – واذا كانت المعرفة التاريخية غير مباشرة بمعنى ان يكون المؤرخ أو أي شخص آخر مهتم بالحوادث التاريخية متلقي لما حدث ولم يكن شاهدا للحادثة ، وانما سمع بها من آخرين أو قرأها في كتاب أو نقش أو مدونة على أية وسيلة من وسائل الكتابة ، فان هذه المعرفة لا تكون خالية من الذاتية • فهي من جهة كانت معرفة مباشرة وقد اضيف اليها ادراك المشاهد أو المراقب وتصوراته ، كما ان تقادم الزمن عليها قد يفقدها بعض عناصرها الحيوية والمهمة ، فربما اغفل المسجل ذكر زمن وقوع الحادثة أو مكانها ، وربما كان لتغير معاني الالفاظ المستعملة في النص المدون أثره الكبير في فهم الحادثة أو الواقعة ، كما ان محاولة المؤرخ وهو في عصر آخر غير عصر الحادثة دراسة الواقع التاريخي ، براهين واضحة على عدم امكانية تحقيق الموضوعية •

٣ – واذا كانت الحادثة التاريخية لا تخلو من الذاتية ، فان الطرف الاخر في المعرفة التاريخية وهو المؤرخ ليس مجرداً من تصوراته وافكاره ونزعاته ، وهذا هو ما يجعل الموضوعية في كتابة التاريخ مجرد خرافة ، وان الذاتية حقيقة واقعة • ففي العلوم الطبيعية على سبيل المثال يراقب العالم سلوك الظاهرة سواء كانت حرة في الطبيعة مثل كسوف الشمس ، أو في المختبر مثل قياس سرعة الضوء في الفراغ ، من دون ان يكون لمعتقداته أي أثر في تدوين نتائج الملاحظة والمختبر • فالانسان سواء كان منتمياً الى المذهب الليبرالي أو المذهب الاشتراكي ، والانسان سواء كان مسلما أو نصرانيا أو بوذيا أو هندوكيا يقوم بتسجيل الظاهرة الطبيعية وفق شروط ومعايير عامة بعيداً كل البعد عن ما يعتقده ويؤمن به ، فلا يكون لدينه أو مذهبه السياسي أو الاجتماعي أي أثر على الظاهرة وتدوين نتائجها ، في حين ان الامر مختلف بالنسبة للظاهرة الاجتماعية والحادثة أو الواقعة التاريخية ، اذ يلعب المعتقد الديني والسياسي والاجتماعي في عملية التدوين والحصول على النتائج وتفسيرها دوراً أساسيا ومتميزاً ، حيث ينظر الى الحادثة أو الواقعة التاريخية من خلال المعتقد • ومهما حاول المؤرخ ان يضع نفسه في موقف موضوعي ، فانه سيجد نفسه في نهاية المطاف حبيس معتقده وأفكاره وتصوراته سواء تلك التي يشترك بها مع غيره من أبناء المجتمع الواحد ، أو تلك التي يتميز بها عن غيره • وربما يقال ان تحقيق الموضوعية في كتابة التاريخ يمكن انجازه بصورة افضل اذا ما تناول مؤرخ أجنبي دراسة الحوادث والوقائع التاريخية لشعب أو أمة أخرى ، فهو ليس بالمشارك في الحوادث ، كما انه لا يتحيز لظاهرة أو واقعة أو حقيقة فيجعل منها محور اهتمامه ، فالتاريخ بالنسبة له مجرد تعاقب وتزامن للحوادث والوقائع في الزمان والمكان • ويمكن الرد على هذا التوجه ببساطة ، فالمؤرخ الاجنبي مشبع بمجموعة كبيرة من القيم والمبادىء ، كما ان اختصاصه في التاريخ وفي تتبع وتحليل حوادث ووقائع

اجبره على حيازة بعض القناعات المستمدة من مجال بحثه ، فهو ينظر الى مادة التاريخ من زاوية معينة ووفق مقولات خاصة قد لا تصلح بتاتاً ان تكون أساسا لدراسة تاريخ أي شعب من الشعوب ، فما هو خاص بشعب معين لا يمكن ان يكون عاما لكل شعوب الارض • اضف الى ذلك فان التعصب لتاريخ شعبه قد يؤدي به الى اصدار احكام خاطئة ومتحيزة بالنسبة لتاريخ الشعوب الاخرى ، فيهمل وقائع وحقائق تاريخية ويفسر أخرى ، وقد يجره موقفه المتحيز الى ابراز حوادث ووقائع أخرى ليست على جانب كبيرة من الاهمية فيعطي لها دورا اكبر في التغييرات الاجتماعية والتاريخية •

٤ ـ لقد حاول المؤرخ الاوروبي تحقيق الموضوعية في كتابة التاريخ من خلال الاستعانة بمناهج العلوم الطبيعية وما تمخض عنه من نتائج علمية في اكتشاف القوانين وصياغة النظريات ، ولكنه اخفق في ذلك لمجرد ادراكه بان الاختلافات بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية كثيرة واسعة • والمؤرخ الاوروبي في نشاطه المثابر متاثرا بالعلوم الطبيعية لم يتوقف عند حدود استعارة المفاهيم والمبادىء والمنهج من علم الفيزياء ، بل وجد في النظرية الحيوية ملاذا اخر يحاول تجربته في كتابة التاريخ ، لعله يصيب في ذلك نجاحا ، فكانت النتائج وبالا على المجتمع الاوروبي ، حيث عملت الطريقة الجديدة عملها في تغيير بنية الفكر والضمير ، فولدت قناعات غير انسانية وعدوانية ، وانعكس تأثيرها على السلوك والاخلاق والعلاقات بين الشعوب المختلفة •

لقد حقت الداروينية نجاحا كبيرا في اثبات تطور الكائنات الحية من كائنات وحيدة الخلية الى أخرى معقدة عبر مسيرة طويلة من الزمن ، ولم يتوقف التطور على الكائنات الحية الدنيا ، بل شمل كذلك الكائنات العليا ، ولم يستثن منها الانسان الذي اعتبر احد الكائنات الحية في شجرة التطور عبر ملايين السنين ، فقانون الانتخاب الطبيعي والصراع من أجل البقاء

وبقاء الأقوى هو القانون العام الذي ساد عالم الكائنات الحية ، فالصراع المستمر بين الكائنات من اجل الحصول على الغذاء واستمرار الوجود قد ادى الى انقراض على الكائنات الضعيفة التي لم تستطع ان تحصل على غذائها وصبحت غذاء لكائنات الاخرى اقوى منها على البقاء • وهكذا نجد الطبيعة تعمل على ايجاد نوع من التوازن بين مجموع الكائنات ، فينقرض بعضها ويبقى الاخر ليستطيع التكيف مع الظروف الطبيعية المتبدلة ، حيث لا تتسع الطبيعة لكل الكائنات ولا يتوفر الغذاء والقوت للجميع • وبناء على ذلك يجب التسليم بقانون اخر من قوانين التطور يتفق مع قانون الانتخاب الطبيعي ويدعمه ، فالكائنات التي تقوى على البقاء عليها ان تتكيف مع البيئة الخارجية ، والا انقرضت من الوجود ، وهذا التكيف يشمل وسائل الدفاع عن نفسها ووسائل الحصول على الغذاء ، والحماية من الأخطار الخارجية • وقد يستغني الكائن الحي بالتدريج عن بعض الاعضاء لعدم فائدتها في التنازع من اجل البقاء ، بينما تنمو اعضاء جديدة ملائمة للظروف المتبدلة ومتكيفة مع البيئة الخارجية • ولما كانت الكائنات متباينة ومتطورة ، فلابد من افتراض قانون آخر يدعم قانون الانتخاب الطبيعي يفسر ظهور انواع جديدة من الكائنات ، هو قانون الوراثة • فالصفات الجديدة التي اكتسبتها الكائنات الحية عبر مسيرة التطور تنتقل وراثيا الى الاجيال الآتية ، وهكذا ينبثق الجديد من القديم ، والمعقد من البسيط ، ثم يستمر التطور من جديد تحكمه هذه القوانين ، فتظهر أنواع جديدة من الكائنات الحية في مرحلة لاحقة من مراحل التطور ، وتفنى كائنات أخرى لعدم قدرتها على الملائمة مع الظروف الجديدة •

ولابد من الاشارة هنا الى ان الداروينية لا تعترف بالغائية ، فهي ترفض ان يكون التطور وفق خطة مرسومة تصل الى غاية معينة •

٥ – اثرت الداروينية بصورة مباشرة في دائرتين من دوائر الفكر

الاوروبي ، أولها : دائرة العلوم الاجتماعية ، حيث استعارت هذه العلوم مفاهيم ومبادىء من هذه النظرية لتحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية والحوادث التريخية ، وثانيها : دائرة تدعيم وخلق فلسفات وايديولوجيات عدوانية ، حيث اصبح النزع بين الشعوب والقوميات محور اهتمامها ، وسيادة قومية على القوميات الاخرى لانه اصلح للبقاء هو القنون العام .

لقد افادت العلوم الاجتماعية والتريخية من النظرية الدارونية . فستعارت منه فكرة التطور الحيوي ، والصـراع ، والانتخاب الطبيعي ، لما اصبحت قوانين الدارونية محور اهتمام المؤرخين في تفسير تطـور المجتمعات ونشـوء الدول والحضارات . فالمجتمعات الانسانية تحكمهـا قوانين التطور ، وان هذه القوانين واحدة لكل المجتمعات ، وان الاختلافات التي نجدها في المجتمعات ليست الا براهين على الاختلاف فيما بينها في درجة التطور ، فمن المجتمعات من هي اكثر تقدما في سلم التطـور من الاخـرى . وان المجتمعات والدول يحكمهـا قانون الانتخـاب الطبيعي والصراع من اجل البقاء ، ذلك ان الصراع هو جوهر التطور في المجتمع الانساني . وقد ذهب المؤرخون وعلماء الاجتماع والفلاسفة الى اثبـات اهمية الصراع والبقاء للاقوى من خلال اعادة النظـر في تاريخ الشعوب والامم والدول ، وقد ساعدهم في ذلك ما كان معروف في الاوساط الفلسفية في القرن التسع عشر من ان المجتمعات البشرية تطورت عبر مراحل معينة باتجاه تحقيق مرحلة تقدمية قادمة ، وان لكل مرحلة من مراحل التطور قوانينها الخاصة . وكانت الفلسفة الهيغلية ، وهي فلسفة تؤمن بالتطور ، من أكثر الفلسفات التي بشرت بان لهذا التطور غاية يتحقق فيها الكمال وينتهي عندها صراع المتناقضات .

٦ ـ وفي هـذا الجو الفكري الذي سادت فيه الدارونية والهيغلية والمادية العلمية التي تمخضت عنها نظرية نيوتن في الفيزياء والتطورات

اللاحقة عليها ، نشأت فلسفات وايديولوجيات شاملة ، حيث نجد فيها تحليلات وتفسيرات شملت جميع جوانب الحياة ، فلها نظرة شاملة للكون والحياة ، فتناولت الانسان والمجتمع والطبيعة ، وكان تاريخ الانسان وتطور المجتمعات البشرية جزءً من اهتماماتها العامة .

٣

١ ـ كان التاريخ ولا يزال محل اهتمام الافراد والجماعات والامم ، فهو الى جانب ما يكشفه عن حياة الانسان ومجتمعه ، وما انجزته الحضارات عبر العصور ، يزود الانسان الحديث بثروة كبيرة من الحوادث والوقائع والحقائق والافكار والانجازات ، ليفهم في ضوئها واقعه التاريخي والحضاري ، ويحدد موقفه في ضوء معرفته واتجاهاته ، فهل ينظر الى الماضي بعين الحاضر ؟ او ينظر الى الماضي بقصد تعين المسارات التاريخية للمستقبل ، أو ينظر الى الماضي في ضوء اثبات مبدىء وأصول نظرية فلسفية جاهزة ؟

ان كتابة التاريخ لشعب أو أمة يتطلب بالدرجة الاولى الاعتماد على الوثائق المكتوبة ومخلفات الانسان المختلفة التي تعبر عن نشاطه الفردي والاجتماعي والحضاري . ولكن سرعان ما نصادف مشكلة في غاية الاهمية هي : هل تستطيع الوثائق والمخلفات ان تقدم صورة حقيقية لما كانت عليه حياة الانسان والواقع الاجتماعي اضافة الى الحياة الدينية والسياسية والفكرية للمجتمع ؟

الجواب : كلا وللأسباب الآتية :ـ

أولا ـ لم تكن الكتابة منتشرة بين طبقات الشعب المختلفة ، بل كانت في العصور القديمة معروفة عند طبقة صغيرة من الشعب أغلبهم من رجال الدين والمعابد ، وكانت لهؤلاء صلة وثيقة بالحكام وأبناء

الطبقة الراقية • وهذا معناه : ان الوثائق التاريخية التي وصلت الينا لا تمثل الا حياة شريحة من المجتمع في أحسن الظروف ، وان الاغلبية من المجتمع لم تستطع ان تدون ما كانت عليه في حياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية • وبذلك تبدو لنا ثغرة كبيرة تزداد عمقاً كلما اردنا استنطاق ما وصل الينا من وثائق تاريخية قليلة بقصد اعادة ترتيب الحوادث والوقائع وصولا الى فهم دقيق للواقع التاريخي للمجتمع •

ثانيا ـ وفضلا عن ندرة الوثائق التاريخية نجد ان ما وصل الينا لا يمثل الا الجزء اليسير جداً منها ، وذلك بسبب ضياع هذه الوثائق واندثارها • فمن المعروف مثلاً ان انسان وادي الرافدين قد كتب معلوماته وحوادث مجتمعه التاريخية على ألواح من الطين ، وان انسان وادي النيل قد كتب على ورق البردي بالاضافة الى وجود نقوش سجلت فعاليات انسان وادي الرافدين والنيل محفورة على الحجر أو مرسومة على الجدران ، الا ان معظم هذه الالواح والأوراق قد أصابها التلف بسبب التغيرات المناخية والكوارث الطبيعية والحروب وانطمار الجزء الآخر منها في باطن الارض ولم تكتشفه بعد معاول الآثاريين • وهكذا تبدو لنا ثغرة واسعة في معلوماتنا التاريخية ، ولا يمكن ان ندعي بان الايام القادمة قد تزودنا بالوثائق الكافية نتيجة لما قد يكتشفه علماء الاثار ، وستبقى هذه الثغرة قائمة فلا نستطيع ان نكون صورة حقيقية لما كان عليه المجتمع في الماضي •

٢ ـ وعلى الطرف الآخر نجد صعوبات ومشكلات أخرى تتصل بالشخص الذي دون الوثائق وذكر فيها المعلومات والحوادث التاريخية ، حيث ان هذا الانسان يخضع في نظرته التاريخية الى المعلومات والحوادث لعوامل عديدة ، منها ذاتية تتصل به مباشرة ، ومنها اجتماعية تتصل بعلاقاته

الطبقية ، ومنها قومية تتصل بانتمائه الى الامة أو الشعب الذي ينتمي اليه •

لقد بات من المسلمات الآن بان الانسان ينظر الى الاشياء من خلال معرفته بالاضافة الى حواسه ، وغالبا ما تتلون الوقائع والحوادث بلون تلك المعرفة وما تنطوي عليه من مواقف • فانسان المعبد القديم يملك حصيلة كبيرة من المعلومات وقد اختلطت بها الخرافات والاساطير والقصص التي تروي صراع الالهة ، فاذا ما صادف حادثة طبيعية أو تاريخية فانه ولاشك سينظر اليهـا من خلال حصيلته من المعلومات • ولا يختلف الانسان في العصور اللاحقة عن اخيه انسان المعبد اللهم الا في نوعية المعلومات والمعرفة ، اذ لا يخلو الفرد من مواقف ذاتية يختلط فيها التحيز والتعصب ، بحيث تصبح الحوادث والوقائع التاريخية ليست مجردة من تأثيره عليها وتصويرها بطريقة تخدم أغراضه وما تنطوي عليه نظرته من تعصب أو تحيز •

لقـد أدى هذا الموقف الى مطالبـة جميع العاملين في حقول العلوم الاجتماعية والتاريخية بتحقيق شرطين ضروريين في المعـرفة الاجتماعيـة والتاريخية همـا : ضرورة التقليل من الاثر الذاتي في تسجيل الحوادث والوقائع • والتميز بين الحـدث والواقعـة باعتبارهما يمثـلان الجـانب الموضوعي في المعرفة ، وفهم أو تفسير الحدث أو الواقعة باعتبار ذلك تحليلا يعتمد على معرفة المحلل وموقفه • والشرط الثاني هو ضرورة الاخـذ بالطريقة النقدية والتحليلية ، نقـد الوثائق وتحليلها بالاساليب العلمية ، واعتماد الطريقة التاريخية في ترتيب الحوادث والوقائع من زاوية معينـة يقررها المؤرخ من خلال فهمه للمسار التاريخي للمجتمع •

٣ - ومن الامور الصعبة في كتابة التاريخ كيفية اختيار الحوادث والوقائع وما هي المقاييس أو المعايير التي يجب اتخاذها في سبيل التميز بين الاولي الضروري والثانوي غير الضروري ، وبعبارة أخرى : ما هي شروط مبدأ الاختيار للحوادث والوقائع التاريخية ؟

من الخطأ الاعتقاد بان الحوادث والوقائع التاريخية تحدث بالضرورة وبصورة ميكانيكية في الزمان والمكان ، وان واجب المؤرخ لا يتعدى تسجيل ما يحدث بموضوعية تامة • ومن الخطأ الاعتقاد بان الحوادث والوقائع التاريخية تحدث كيفما اتفق ، وان للمؤرخ حرية تامة في ترتيب الحوادث والوقائع بالصورة التي يعتقد انها صحيحة وأقرب الى الواقع •

لاشك ان المعلومات التاريخية عن الماضي لا يمكن ان تكون تامة ، وانه من المبالغة اذا زعمنا باننا نعرف كل شيء عن مرحلة تاريخية معينة • ولكن بالامكان تذليل كثير من الصعوبات التي تواجه المؤرخ اذا ما اتجهت الدراسة التاريخية الى استقصاء وتعقب تلك الحوادث والوقائع المؤثرة فعلاً في المسيرة التاريخية ، والتي يعزى الى حدوثها ما ظهر من حوادث ووقائع أخرى بعدها ، فتكون بمثابة السبب للحوادث الاخرى أو المشيمة التي تولدت فيها الحوادث الاخرى أو الظروف الضرورية لظهور ما بعدها من حوادث •

ان العقلية التاريخية المدربة تصوغ مبدأ اختيار الحوادث والوقائع من خلال دراسة وظيفية للمجتمع ، وذلك على أساس ان الحوادث والوقائع ليست منعزلة عن الكل الاجتماعي ، بل تكون مع غيرها شبكة معقدة تعكس الواقع التاريخي للمجتمع في فترة زمنية معينة •

ان من أكبر الاخطار في كتابة التاريخ ان يخضع مبدأ الاختيار لاعتبارات تمليها مواقف متحيزة ومتعصبة ، خاصة عندما تكون الحروب والاحقاد التاريخية قد ولدت في نفسية المؤرخ قناعات معينة وافتراضات خاصة ، فنجده يبحث بين زوايا التاريخ لعله يضع يده على حوادث ووقائع تؤيد ما يذهب اليه ، وبذلك يتحول التاريخ مادة للتقطيع تارة وموضوعا للتأويل تارة أخرى ، وتتحول الحوادث والوقائع الى مجرد شواهد على صدق قناعاته وافتراضاته •

٤ – يخضع مبدأ الاختيار الى ثلاثة أنواع من القناعات تبعد البحث عن الموضوعية ، وهي قناعات لا يمكن ان تكون سوى مذاهب في كيفية كتابة التاريخ :–

أ – قناعات فردية أو ذاتية ، وتتجلى في موقف المؤرخ الادراكي والشعوري للحوادث والوقائع ، وهذا معناه : ان نظرية المعرفة التي يتسلح بها المؤرخ تفرض عليه أنماطا ومواقف خاصة من الحوادث والوقائع التاريخية ق فان كان موقفه تجريبيا وحسيا ، فاننا سنجده يرفض جميع الحوادث والوقائع التي يشعر انها جزء من اسطورة أو متعلقة بعقيدة صوفية أو ميتافيزيقية . اما اذا كان موقفه عقليا أو ميتافيزيقيا ، فاننا سنجده يرى الحوادث والوقائع التاريخية وكأنها جزء من ارادة الهية تتجلى في خطة محكمة لغاية معينة ، وان جميع ما يظهر في العالم الارضي ليس الا مجرد تجسيد حي للارادة الالهية .

وقد يدعي احد المؤرخين بان الالتزام بالموضوعية في كتابة التاريخ يملي عليه دراسة الحوادث والوقائع بصورة مجردة ، حيث لا اثر لفكرة مسبقة تدفعه الى تفضيل حادثة أو واقعة على حادثة أو واقعة أخرى ، ولا اثر للانفعالية من أي نمط كان ، بل الالتزام الدائم بالاستقرائية في استقصاء الحوادث والوقائع وتحليلها في أطار الواقع التاريخي .

ان هذا الافتراض لا يمكن تحقيقه ، بل غالباً ما يتحول الى مبدأ مضلل يقنع القارىء أو المتتبع لتاريخ مجتمع ما بان ما قدمه المؤرخ هو الصواب بعينه ، بينما قد يختفي وراءه قناعات ذاتية خطرة تعكس في نهاية الامر حقيقة ما يرمي اليه المؤرخ من غايات .

ب – قناعات اجتماعية تتجلى في موقف المؤرخ ومجموعة قيمه ومثله العليا